

مقدمة عن الجمال والحرية

إذا كان الجمال كما يقول هيجيل نمطا معيناً لتظهير الحقيقة فأولى به أن يكون أوضح تجليات الحرية، ولا خير في الأدب إن لم يكن وسيلة للكشف عن الجمال أو درجة ترقى بنا في معارج الحرية. وقد ظل ثلوث منظومة القيم قديماً عندما اقتصر على الحق والخير والجمال. وأخذ الفلاسفة والحكماء يبحثون عن التناغم بين أطرافه في ضوء المعطيات الحسية حيناً وفي ظل فكرة الإيقاع الكوني المتصل بروح العالم حيناً آخر، وانتهى الأمر حينئذ إلى حصر الجمال في تطبيق قواعد الفن السائدة لتوليد المتعة الجمالية بالمقاييس المضبوطة.

لكن النقلة النوعية في مفهوم الجمال تمت على يد كانت عندما اعتبر الذوق شاهداً على التوافق التام بين العالم الطبيعي والإرادة الحرة، مما مهد المجال لشييلير كي يطلق دعوته التي يعلن بها مولد العصور الحديثة في اعتبار الجمال أقوى تعبير عن الحرية، منذ تلك اللحظة تصدرت قيمة الحرية منظومة الحق والجمال وأصبحت هي المهيمنة عليها.

وإذا كانت وظيفة الأدب جمالية في الدرجة الأولى – حتى تكتسب فعاليتها المحققة لبقية الوظائف – فإن من الضروري في عالمنا العربي أن تقترب بها وظيفة التحرير، فلا سبيل إلى إبداع حقيقي يترك الإنسان واللغة في مكانهما دون تحريك نحو مزيد من تحرر الطاقات وإطلاق العنان للخيال كي يعيد تشكيل العالم بصورة أجمل، حتى وهو يمعن في هجاء قبحة المائل ويخلق فينا توقاً فياضاً إلى استشراق أفق أشد وضاءً وكمالاً.

من هنا فإن النقد الأدبي يصبح فاقداً لبوصلته الموجهة إن غفل عن بلورة استراتيجية التحرر المبدع، حتى وهو يحلل أكثر التقنيات الفنية دقة

وخصوصية. لأن وظيفتها الأساسية تبقى في نطاق توليد اللذة الجمالية الكفيلة بتحرير وعي الإنسان بالفن والحياة في التحليل الأخير.

على أن حرية الخطاب بمستوياته الشاملة لما هو سياسي وثقافي تعد هي الممارسة المباشرة لأولى درجات الحرية المبدعة. وبوسعنا أن نتمثل مشروعات التحرر في الوطن العربي. وقد مضى على انطلاقها ما يربو على قرن ونصف، منذ نشأة النزعات الليبرالية الأولى في مقاومة السلطة المطلقة للعثمانيين وولاتهم، ثم النضال الممتد ضد مشروعات الهيمنة الإمبريالية الغربية، أن تتمثلها اليوم وقد بلغت درجة من النضج تضعنا في صف الجيل السابع من دعاة الحرية. لكن الطابع المميز لمنظورنا اليوم أنه يعتبرها منظومة متكاملة لا ينفصل فيها السياسي عن العقائدي، ولا الشخصي الفردي عن الجماعي، فالحرية ذروة القيم المعاصرة والمقدس الإنساني الذي خلقته الثقافة وعززت به الجمال والحق والخير.

وإذا كان لنا أن نستأنس بأهم العلامات المائزة في الفكر العربي المحدث لتأكيد هذا المنظور لدى الأجيال الجديدة، فبوسعنا أن نشير إلى بحث العالم الكبير "قسطنطين زريق" في كتاب "في معركة الحضارة" حيث نجد تحديدا دقيقا لمقاييس الحضارة في العصور الحديثة يحصرها في ثمانية، ثم يعود فيرجعها جميعا إلى مقياسين عامين هما الإبداع والتحرر، ولكنه لا يلبث أن يصل في نهاية تحليله الشائق إلى أن الإبداع وتخليق الجمال ليس سوى مظهر للتحرر الدائب الفعال قائلا:

"إذا كان جوهر التحضر هو التحرر، فمعنى تخلفنا هو أننا لم نجزم ما جازته الشعوب التي سبقتنا في هذا المضمار في التحرر من الطبيعة والوهم، والتخلص من الخطأ والهوى وتأثير الغير".

وإذا كان من الممكن أن نخضع بعض عمليات التحرر للقياس الكمي في أرقام وإحصاءات، عن التصنيع والإنتاج ومعدل الدخل، فقد اعترفت المنظمات العالمية الكبرى التي تعنى بالتقدم المادي للإنسانية بأن هناك ما هو أشد حسما

من هذه المظاهر في قياس ظاهرة التقدم وعلى رأسها روح الابتكار والإبداع والحس الجمالي بالوجود.

وقد اهتم بعض المفكرين العرب في تناول قضية الحرية بالانتقال من المطلق إلى النسبي، يقول عزيز الحبابي مثلاً: "ليس هناك حرية، بل حريات تستزامن جدلياً لإرساء عملية التحرر. ومن ثم يصبح من الضروري ترك مفهوم الحرية التام المستقل، والانتقال لمفهوم التحرر الناقص القابل للنمو والتطور التدريجي" وكما كان الأقدمون يتحدثون في علوم الكلام عن الإيمان الذي يزيد وينقص، فإن علينا أن نتمثل اليوم مفهوم التحرر الذي يعبر عن عمليات الارتقاء من حالة إلى أخرى في ضوء استراتيجية حضارية شاملة.

ويقدم عبد الله العروي توصيفاً محدداً لعدة مؤشرات للتحرر من أهمها مؤشر النمو الاقتصادي وسيادة التفكير العلمي في المجتمع والمشاركة الفردية في السياسة بما يؤدي إلى تداول السلطة سلمياً، وبوسعنا أن نضيف إلى هذه المؤشرات ما يتصل بحريات الفكر والإبداع بما يؤدي إلى تعديل منظومة القيم لدينا كي تكون نسبية تاريخية تتوافق مع إيقاع التقدم الحضاري للعصر وتقبل منجزات الإنسانية في مختلف الثقافات على أساس نقدي لا يعتبر الهوية قرينة للثبات والجمود، معترفاً بضرورة تعديل الأولويات في أنساق التفكير وأشكال الإبداع على السواء.

وهذه الفصول التي أقدمها للقارئ من حصاد تجربتي النقدية في مطارحة الأعمال الشعرية التي كتبت في الفترة بين عامي ٢٠٠٢، ٢٠٠٥م أضعتها تحت محكٍ كلي بهذا العنوان الطموح "جماليات الحرية" لأنه الخيط الجامع الذي أصبح يربط رؤيتي النقدية لمظاهر الإبداع المختلفة، على أساس اعتبار الحرية قيمة جمالية علياً لا بد أن تتجلى في الإبداع الشعري بدرجات وأشكال مختلفة، فكلما تأملت مظهرها تقنياً فريداً يفجر شعرية النصوص ويحفز تأثيرها في المتلقي ليزيد متعته فإنني في حقيقة الأمر أدعوه إلى تقبل غوايتها الفنية كي يتحرر قليلاً من أوامره وعوائقه المترسبة في ثقافته القارة. وإذا كان الأدب في جملته

نقدا للحياة فإن نقد هذا الأدب - مهما تذرع بمناهج ومداخل تصطنع العلم والحكمة وتتحفظ في إطلاق أحكام القيمة - عليه أن يستحضر ما تحتاجه الحياة من قوة دافعة لتوظيف الجمال للرقى بها في معارج الحرية التي أصبحت الهدف الاستراتيجي للإنسان المعاصر. ولست أزعـم أن هذا الهدف يتجلى في كل الأعمال التي تناولتها بالدرجة ذاتها، وإن لا فـيـم تتفاوت قيمتها وأهميتها وقدرتها على تحقيق كـشـوفها الجمالية المتميزة. وحسبي في التأكد من صحة هذا الاتجاه ما أسرّ إليّ به أحد زملائي الكبار من علماء الحضارة بأنه قال لطلابـه : كلما قرأتـم مقاربة جديدة في هذا النقد وجدتموه يدفعكم للتحرر الجميل الممتع من بعض أوهامكم السابقة، وكل ما أتمناه أن لا أكون بدوري قد وقعت أسير وهم كبير وأنا أتصور أن هذه الكتابات البسيطة قد تسهم في جعل أدبنا حياتنا ترقى إلى الأجل.

صلاح فضل